٤ ــ كاتب ياسين

ولد كاتب ياسين فى السادس والعشرين من آب سنة ١٩٢٩ فى إحدى مقاطعات قسطنطينة ، من أصل قبلى ، ودرس فى مدرسة ستيف ، ثم أوقف وسجن فى السادسة عشرة من عمره على أثر المظاهرات الدامية التى جرت فى الثامن من مارس سنة ١٩٤٥ ، ثم أطلق سراحه بعد عدة شهور .

وفى حياة كاتب ياسين تواريخ هامة تشكل مراحل تكوينه العقلى وظروف حياته المعاشية والمادية ، وتبدأ هذه المراحل سنة ١٩٤٦ بإصدار مجموعة شعرية بالفرنسية أسماها « نجوى » Soliloques لفتت إليه أنظار الأدباء فى العاصمة الفرنسية ، وفى سنة ١٩٤٧ رحل إلى باريز ومكث فيها تسعة شهور ، وفى سنة ١٩٤٨ أقام ثانية فى باريز ونشر فى مجلة « مركور دى فرانس » قصيدة عنوانها « نجمة » وفى سنة ١٩٤٩ عين مراسلا لصحيفة الجزائر الجمهورية Alger Républicain ثم سافر إلى العربية السعودية والسودان المصرى وآسيا الوسطى السوفيتية ونشر أثناء ذلك قصائد فى باريز والجزائر . وفى سنة ١٩٥٠

توفى والده فحمل بعده أعباء أسرته ؛ وفى سنة ١٩٥٠ هجر كاتب ياسين مهنة الصحافة واشتغل حمالا فى مرفأ الجزائر وأعقب ذلك فترة عطالة ؛ ثم رحل بعد ذلك إلى باريز للمرة الثالثة فاشتغل هناك خادماً فى مزرعة فعاملا زراعيا ثم عاملا بناء ومساعداً كهربيًّا وغـــير ذلك من المهن المتواضعة . وقد استطاع كاتب ياسين من سنة ١٩٥٢ إلى ١٩٥٤ أن يقف بفضل إخوانه جل وقته على العمل الأدبى ، فأتم تأليف روايتين ضخمتين هما « الجثة المطوقة » وهى مأساة نشرت فى مجلة « اسبرى » سنة ١٩٥٥ ، ونجمة ، وهى موضوع دراستنا .

إن هذه الترجمة الموجزة تعكس أهم الخصائص التى تميز أدب كاتب ياسين ، فقد بدأ حياته كشاعر ينظم بالفرنسية ، ثم احترف الصحافة ، تلك المهنة التى نقلته فى أوساط وبلدان مختلفة ثم أتيح له أن يسيح فى بعض الأقطار الشرقية فاطلع على أنماط من الحياة والنظم وأحوال الشعوب مما وسع مداركه وزاده شعوراً بالحرية وتمسكاً بها ، زد على ذلك مزاولته المهن المتواضعة واتصاله بالبيئات الشعبية والأوساط العمالية الكادحة مما قوى روحه الثورية وزاد فى خبرته وتجاربه . فحياته إذن

قسمان علوى وسفلى عالم الشعر والخيال والرمز وعالم المادة والحقيقة والواقع ، إن هذه الاثنينية تنعكس فى روايته الكبرى « نجمة » فهى تجمع بين صفتين متلازمتين الواقعية والرمزية ؛ وهذا ما أضفى عليها طابعاً فريداً لا نجد مثيله عند زملائه من كتاب الجزائر مما جعله أقرب فى الناحية الروائية الفنية إلى الكتاب الأوربيين كمارسيل بروست وكافكا وفولكنير الأميركى ، ولعل هذا الأخير أكثرهم تأثيراً فى أدب كاتب ياسين .

ولا أدل على غرابة رواية نجمة من تلك المقدمة التى وضعها الناشرون يلفتون بها أنظار القراء إلى ما قد يخفى عليهم من أجواء الرواية ومراميها وأهدافها « فهى عالم غريب وغامض يلاقى القارئ فيه صعوبة كبيرة لجمع أطراف الرواية وتأليفها » فهى عبارة عن لوحات متعددة تنساب أمام القارئ فتنقله بخفة وسرعة عبر مشاهد وحوادث فى إطار متمدد مائع ، فالشخصيات متداخلة ، والمفاجآت مستمرة ، وقد تشغلك اللوحات والصور الخاطفة واللمحات التحليلية عن تتبع الرواية وتفسد عليك التسلسل الذى ألفته فى الفن الروائى عادة ، فى كل مرحلة يشعر القارئ بنوع من الانزعاج ويحاول جاهداً معرفة النقطة الأساسية التى تتفرع مأساة الأشخاص ، فالقصة

العامة المتطورة معدومة وكذلك التاريخ والتوسيع الإنشائى فهما غير محدودين فى الزمان والمكان ولا يسيران فى توغلهما وتسلسلهما حسب الطريقة الكلاسيكية والأصول الروائية المتبعة فإن الحوادث تجرى وتتحول متحدية مقاييس الزمان والمكان ؛ فكأن أبطال الرواية كائنات لازمنية مجردة من الثقل الأرضى ، فكأن كاتب ياسين يزدرى الزمن ومفعوله التهديمى وسيره المطرد فهو بين وقت وآخر يجمد الزمن فى لحظة أبدية ليعطيك بداية أو نهاية حادثة أو فاجعة فهو قد « بنى عالماً كوكبيا أقام فى وسطه شمساً هى « نجمة » يدور حولها عدد من الكواكب الكبيرة والصغيرة لكل منها نجمه الخاص ، وإن كانت الشمس ثابتة ؛ وكانت تلتمع دائماً بالكثافة نفسها فنحن لا نعرفها إلا بانعكاساتها على الكواكب التى تحيط بها والتى تبعدها حركتها أو تقربها من نورها ، وكذلك الأمر فى شأن النجوم ، ولما كانت جميع هذه الكواكب سجينة الحركة نفسها التى تجعلها حاضرة ينتج عن ذلك اختلاط تام بين الماضى والحاضر والمستقبل ، فالقصة تبدأ فى لحظة معينة ثم تتطور وتقف وتعود إلى النقطة الأولى ، ثم تتخذ وجهة أخرى تسلكها ردحاً من الزمن قبل أن تعود إلى نقطة الانطلاق وهكذا

دواليك فنحن داخل حركة دائرية تسير فيها الرواية نهج الطى لا النشر لأن الانتقال من حالة إلى أخرى تجرى حسب انزلاق الفكر عبر خط لوابى دائمى . ولا تكفى صورة الحجر الملقى فى الماء لإيضاح الحركة فبدلا من أن تشمل التموجات مساحة ما فإنها هنا تضغط حجماً من الزمان والمكان ندرك جميع نقاطه فى نهاية الرواية(١) .

وخلاصة الرواية أنه كان يقطن فى مدينة بونة أربعة أصدقاء هم : رشيد والأخضر ومراد ومصطفى ، وكانوا قد تلقوا العلم معاً فى المدرسة وقد اشتركوا يومئذ فى النضال الثورى سنة ١٩٤٥ فطردوا من مدارسهم وعذبوا وسجنوا ثم فرقتهم ظروف الحياة بعد خروجهم من السجن وقاموا بمغامرات كثيرة إلى أن جمعتهم الصدف فى ورشة عمالية يشرف عليها مدير فرنسى كان يكره العرب ويضطهدهم و يتلذذ بتعذيبهم . وكان هؤلاء الشبان الأربعة يعشقون فتاة تدعى « نجمة » زوجة رجل اسمه كامل ، ويظل أصل نجمة مجهولا إلى أن يتوصل الأربعة تدريجياً إلى اكتشافه ومعرفة الحقيقة ، فقد أسلمت نجمة وهى طفلة إلى امرأة تدعى لالافطمة فربتها حتى بلغت سن الشباب ،

(١) المقدمة ومقال الأستاذ نادو فى صحيفة « فرانس اوبسرفاتور »

ونجمة فى الحقيقة بنت امرأة فرنسية وأب جزائرى حملت بها أمها فى ليلة قضتها مع مراد ومصطفى فى إحدى المغاور حيث قاداها هناك ، وعند الصباح وجد زوج الفرنسية —مقتولا فى المغارة . والقاتل المفروض هو والد نجمة السى مختار .

وهنا يلازم رشيد السى مختار قاتل والده حبا بجلاء السر واكتشاف حقيقة نجمة التى قد تكون أخته ، وقد يكون السى مختار أباها ، كما أن السى مختار هو أب كامل زوج نجمة ؛ ولم يستطع منع هذا الزواج السفاحى خشية اكتشاف سر ولادتها . وفى رحلة إلى الحجاز أطلع السى مختار رشيداً على سر نجمة ، واتفق الاثنان على خطفها من زوجها — أى من أخيها — وإرجاعها إلى قريتها الجبلية حيث تعيش بقايا قبيلة « قبلوت » التى دمرها الفتح الفرنسى وشرد أهلها ، وهكذا عادت نجمة على الرغم من مغامراتها ونسبها المشوب بالدم الفرنسى إلى منشئها فتغلب بذلك داعى الأرض ونداء العرق على جميع الملابسات والحوادث والاعتبارات الاجتماعية والعرقية .

ولكى تفهم الرواية تمام الفهم من وراء الخيال الروائى ، والحاجب اللغوى المستعار يجب أن تقرأ على ضوء « الفكرة الجزائرية » والوجود الجزائرى ، فهى قضية شعب مظلوم

ولكنه حاضر ، وفكرة وطن مفقود ولكنه ماثل فى أذهان بنيه « تحمله إليهم نسمة وحيدة تهب على البلاد ساقتها إليهم الغابة والصحراء والبحر » .

وتكمن فكرة الوجود الجزائرى فى هذه الأرض التى يعيش عليها الشعب الجزائرى وفى الخيرات التى تكمن فى أحشائها والتى يمعن المستعمر فيها نهباً فى حين حرم أهل البلاد من القوت الضرورى والحقوق الإنسانية البدائية .

وتتجلى فكرة الوجود الجزائرى فى هذه الصور الاستعمارية القاتمة عن الحياة الجزائرية فى الحقول والمزارع والمدن وورشات العمال والسجون ودور القضاء ، وتتجلى أيضاً فى هذا الحقد الذى يكنه أهل البلاد للمستعمر وفى الازدراء الذى يكنه المستعمر لأهل البلاد ، وتشتد البغضاء بين الحاكم والمحكوم بقدر ارتفاع الوعى القومى وانتشاره مما جعل أحد المتظاهرين يصيح فى بنى قومه :

إلام الانتظار ، إن القرية لنا
أنتم الأغنياء تنامون على سرر الفرنسيين
وتعملون فى مستودعاتهم
أما نحن فلدينا أردب من الشعير ودوابنا تأكل كل شىء

إن إخواننا فى ستيف قد ثاروا

ولما نصح العقلاء المتظاهرين بالتزام السكون والاعتدال والاعتماد على الرؤساء لأن الشعب عاجز عن مقاومة الدبابات صاح المظلومون :

ليدلنا الرؤساء على الطريق
لقد كفانا نوماً ، لنهاجم

قلت لى وجتى : إنى ذاهب لجلب القمح
أيتها الأيدى الحمراء ! كفاك نوماً .

وتتجلى أيضاً فى قول السى مختار مخاطباً رشيد : « يجب أن تفكر بمصير البلاد التى أتينا منها ، تلك البلاد التى ليست فرنسية ولا يرأسها باى أو سلطان . لعلك تفكر بالجزائر المحكومة وماضيها المبهم ، يجب أن تعلم بأننا لسنا بعد أمة ، ولسنا سوى قبائل مبعثرة ، ولم يكن إعزاز القبيلة رجوعاً للوراء فهى الرباط الوحيد الذى بقى لنا للم الشعث والتلاقى حتى ولو كنا نأمل أحسن من هذا . »

إن هذه القبائل المبعثرة المشردة التى هى صورة للجزائر المفككة الأوصال تجسدها فى نظر كاتب ياسين قبيلة « قبلوت » التى غزاها الفرنسيون إبان الفتح وشردوا أهلها ،

ولكن الروح الجزائرية القائمة على التمسك بالأرض وحب الحرية كانت تحول دون فناء القبيلة إذ ما لبثت أن لمت صلاتها وقوت أواصر القربى والعصبية والتزاوج واعتنقت أسماء جديدة لتنجو من التنكيل بعد « أن تركت حفنة من الشيوخ والأرامل واليتامى على الأرض الملوثة لتخلد أثرها وذكرى القبيلة المصروعة » . . . وهكذا ترى أن القبيلة الصغيرة على صورة أمها الجزائر تنشد البقاء وتقاوم الغزاة مقاومة عنيفة حتى إذا حلوا أرضها غزتهم بدورها وتمثلتهم على مر الزمن .

إن فكرة الوحدة والنضال لها جذورها فى الماضى تعود إلى زمن عبد القادر الجزائرى وهو « الظل الوحيد الذى كان بمقدوره أن يمتد على الجزائر بأسرها ، فهو رجل السيف والقلم ، والرئيس الوحيد الذى يقدر أن يوحد كلمة القبائل ويرفعها إلى مصاف أمة ، لولا أن أفسد عليه الفرنسيون أمره وحالوا دون نضاله الموجه ضد الأتراك ، ولكن الغزو الفرنسى كان شرا ضروريا ، وتطعيما مؤلماً يجلب بشائر التقدم إلى شجرة الشعب الجزائرى التى آذاتها ضربات الفأس » . فإن الفرنسيين شأنهم فى ذلك شأن الرومان والأتراك فلم يكن لهم من بد إلا يبثوا جذورهم ، تلك الجذور التى هى رهائن الوطن الذى يتمخض ،

والذى يطمعون بخيراته ، والفرنسيون إذ يحاولون منع ولادة هذا الوطن إنما مصيرهم إلى الخذلان ، إذ لابد لهذا الوطن أن يتحرر بدونهم ولابد أن يطردوا منه ، وكما أن الجزائر ابتلعت الغزاة وتمثلتهم فإن الأرض العطشى ذاتها ستمتص دماء أمثالهم لتخلق منها جزائر فتية قوية تدب فيها الحياة الحرة المنطلقة من كل قيد.

* * *

من مزايا أدباء الجزائر أنهم أبناء الأرض التى أنبتتهم ، فهو شهود حياتها ومآسيها ، بل هم المرآة الأمينة التى تنعكس عليها الحياة الجزائرية فى سموها وانحطاطها وجمالها وقبحها ، ولذا حفلت رواية « نجمة » — إلى جانب الناحية الرمزية التى اقتضتها اصطلاحات الفن الروائى — بالصور الواقعية والملاحظات النفسية والصور الاجتماعية واللوحات التحليلية الموفقة التى تشهد للمؤلف بعمق نظرته للحياة وغنى تجاربه عن الأشياء والناس .

قال يصف يقظة القرية ونهوض العمال : « بدأ منظر القرية بعد أن نظفها الليل كئيباً ، مبتذلا كمنظر مهرج مسح عن وجهه أصبغة التنكر ، وكان الفجر رطباً رماديا لا تسمع فيه سوى خطوات متثاقلة ، وسعال متباعد ، وسلام يلقى فيرن صداه ، تميزه هذه الاستجابة المنتزعة التى تغلب على الإنسان

عند صحوه من النوم . ولم يستجب المارة فى مثل هذه الساعة إلى ردة عادة غسل الوجه فقد تجمعوا فى « برانسهم » يطرقون بعصيهم بانتظام يشكل يخالطه الغيظ والخمول : فيدخلون الواحد تلو الآخر إلى خمارة وحيدة حيث يستعيدون قواهم منذ الجرعات الأولى : إن القهوة تطرد التعب والبرد .

إن السماء لا تزال مكفهرة كالأمس .

قال أحد الكناسين وهو منحن نصفين :

مع أن الوقت ربيع !

فهز الفلاحون رؤوسهم ، وما لبثت الخمارة أن فرغت من الرجال بمثل السرعة التى امتلأت بهم . الكناسون والفلاحون العمال يتتابعون جميعاً على الطريق المستقيمة فأصبح سعالهم أقل يبوسة ، وضربات العصى أخف وطأة كأن كل واحد منهم قد استعاد ثقته بنفسه حازماً أمره لنهاره كله !

وقال يصف سجون الجزائر حيث يلقى الموقوفون أنواع التعذيب : « تقدم الأخضر تحت وطأة ضربات الشرطة ، فصرح بهويته ونسبه وغير ذلك من المعلومات الشخصية .

وظل رجال الشرطة يضربون .

وظل الضابط يقرأ ورقته .

ـ إذن إن السيد تلميذ ؟

ـ فشهق الأخضر قائلا : نعم تلميذ !

ـ فعلق الشرطى سوطه على زناره ، وتناول حبلا رطباً من على حافة حوض الماء ، وامتنع الشرطيان الآخران عن ركل الأخضر ، وأخفى هذا رأسه بين ذراعيه على محاذاة الأرض .

لقد هيأ نفسه للتعذيب ، فهو لن ينكر اشتراكه بالمظاهرة ، ولن يبوح بكلمة عن المسدس الذى طمره فى الساقية ، وقد وطن نفسه ـ كوسيلة للنجاة ـ إذا اشتد عليه الألم على أن يبوح بأسماء طلاب من أنصار الفرنسيين الذين سيثبت التحقيق فيما بعد براءتهم .

لم يكن الأخضر يشعر بكل هذا إلا فى شكله العام المبهم ، فهو لم يعد يشعر برأسه ، وظلت بقية جسمه شبه سليمة ، وأخذ ألم بعيد وحاد يتوضع شيئاً فشيئاً فى خاصرتيه وركبتيه وكعبيه وقفص صدره وفكيه .

ثم تركهم الأخضر يعصبون يديه ورجليه ، ثم ثبت الشرطيان بين الحبلين دفة خشبية طويلة من شأنها تثبيت السجين ، ثم حمل وقذف فى الحوض . لقد خدشت كتفه اليسرى ، فوجد فى جموده عن الحركة وسيلة لإبقاء نصف

جسمه غير مغمور بالماء فى شكل زاوية قائمة ، وكانت الدفة قد هصرت ذقنه ، وكان الأخضر فى انتفاضاته ليبرز رأسه رأسه يصل أحياناً إلى مستوى رجال الشرطة .

أغمض الأخضر عينيه .

فشعر بشىء بارد يضغط على شفتيه عرف عند المذاق أنهم وضعوا له حجراً كبيراً يصل حتى البلعوم ليمنعوه من إطباق فمه ، ثم وضعوا له شيئاً آخر استطاع أيضاً تحديد ماهيته : قطعة من أنبوب معدنى يستعمل للسقى .

سالت المياه !

فلم يعد يستطيع الاحتمال .

لم يعد باستطاعته أن يشرب أكثر مما شرب .

وشعر كأن أعصابه جميعاً تتلوى ، وأن جرعة مثلجة تقلب له أحشاءه

الماء يسيل .

وكان الضابط يزيد فى إسالة الماء تدريجيا .

وكان الأخضر يزداد انتفاضاً .

– ياله من متوحش ، إنه يريد أن يقتل نفسه .

– هيا ! تكلم ، إنك شاب ، وسيطلق سراحك .

– من هم رؤساؤك ؟

– هيا يا (. . .) هل تريد أن تفطس ؟

لقد عزم الأخضر على البوح ، وأشار بإيقاف سيلان الماء !

– رؤساؤنا ؟ ليس لنا رؤساء ، نعم ، نعم ، سأتكلم ، انزعوا أولا الأنبوب . إن رؤساءنا :

– إنه يسخر بنا ابن المومس !

– وانهالت عليه الضربات .

– إن سوط الضابط لم تعد تكفى .

– وتناول الشرطيون حبالا رطبة أخرى .

وانهالوا على إخمص القدمين كأنهم حطابون فى غابة .

وكان الأخضر يسمع لهث الشرطيين .

وعرف لماذا استهدف الشرطيون أخمص القدمين .

فثنى ركبتيه وغطس . . .

وهذه صورة عن القضاء الاستعمارى : « قال مزيان : ذهبت لاستشارة محاميين كبيرين فى قسطنطينة ، فبعت آخر قطعة أرض لأدفع لهما أجرهما ، بعد أن صرفت ما ادخرته وأمى على الدعوى وكانت الحكاية عبارة عن خطب ، وبعد ثلاث ساعات كاملة أى منذ أن بدأ المحامى « كونى »

بالكلام ، أطرق القضاة وتهامسوا فيما بينهم ، وكنت عند كل مقطع أضع على طاولة الدفاع ورقة من فئة المائة فرنك ، وحاول الحراس إخراجي من القاعة ، وكان الترجمان ينقل بأمانة الكلمات المنتزعة من فم والدى ، وكان تأثر الحضور بادياً ، وبعد المرافعة ترك القضاة القاعة بخطى وئيدة وكنت أجد فى وجوههم سيماء الملائكة بأثوابهم وقلانسهم الخبيثة . وكان المحامى « كونى » يبتسم لوالدى علامة البراءة ، ثم عاد القضاة ، وكان الحكم . . . بالإعدام » .

إن الرواية كتبت بمهارة فائقة ، ففى خلال مائتين وخمسين صفحة استطاع المؤلف أن يستأثر باهتمام القارئ وذلك على الرغم من تشعب الحوادث وتعقيد الأساوب الروائى . حقا إن كاتب ياسين . . . كاتب من الطراز العالى .